ISSN : 2543-3938 - EISSN : 2602-7771

علاقة القوة الدينية بالسلطة في المغرب الأقصى بين التقارب والصراع (الدولة السعدية أنموذجا)

Religious forces' relationship with power in The Far Maghreb between rapprochement and conflict (Saadiya State model)

درعي فاطمة، جامعة مصطفى اسطمبولي – معسكر- (الجزائر)

Fatima.drai@univ-mascara.dz

تاريخ الإستلام: 24/ 08/ 2021 **تاريخ القبول**: 27/ 03/ 2023 **تاريخ النشر**: 30/ 04/ 2023

ملخص:

تأسست الدولة السعدية في المغرب الأقصى سنة 1554 م مستفيدة من دعم القوة الدينية التي ستوظفها لتوسيع وتوطيد نفوذها داخل المغرب للقضاء على بقايا الوطاسيين والوقوف ضد الغزو الإيبيري،فعمل السلاطين السعديين على تقريب بعض زعماء الطرق الصوفية المتعاونين معهم ومنحهم الإمتيازات والنفوذ على حساب طرق أخرى وهو ما سيكون سببا في قيام حركات تمرد وثورات على مدار الحكم السعدي.

الهدف من هذه الورقة البحثية هو إبراز دور القوة الدينية الممثلة في الطرق الصوفية والزوايا وشيوخها في قيام وتوسيع نفوذ الدولة السعدية، وسياسة السلاطين تجاه هذه القوى ثم تحوّل هذه الأخيرة إلى عامل إضعاف للدولة.

الكلمات المفتاحية:التقارب؛ الدولة السعدية ؛الصراع؛ القوة الدينية؛الطرق الصوفية ؛المغرب الأقصى.

***

Abstract:

The Saadiya state was founded in the Maghreb, benefiting from the support of the religious forces it would use to expand and consolidate its influence within Morocco to eliminate the remnants of the Tassians and stand against the Iberian invasion, and the Saadi sultans brought some of their collaborators closer together and granted them privileges and influence at the expense of other religious forces, which would be the cause of rebellions and revolutions throughout Saadi's rule.

The aim of this research paper is to highlight the role of religious forces in establishing and expanding the influence of the Saadi state, and the sultans' policy towards these forces and then turning these forces into a weakening factor for the state.

Keywords: *conflict; Morocco; Rapprochement; religious forces; Saadiy state; Sufi ways;*

1. مقدمة:

شكّلت الطرق الصوفية منذ نشأتها قوة مادية ومعنوية لها تأثير كبير في مختلف المجالات الدينية، والسياسية والإجتماعية جمعت بين العبادة والتصوّف ونشر العلم، وتوفير الأمن والحماية، كما كانت طرفا فاعلا في الصراع الإجتماعي والسياسي الذي عرفه المجتمع، من خلال تأثيرهم في حياة الناس بفضل نشاطها الواسع فتحوّلت تلك الطرق الصوفية إلى قوى دينية ذات وزن ديني وسياسي، وإجتماعي اعتمدت عليه السلطة.

أصبحت الطرق الصوفية قو ة دينية ساهمت في تأسيس كيانات سياسية مغربية وتوحيد سياسته وتشكيل هويته، ومن هذه الكيانات السياسية الدولة السعدية [1] التي تأسّست مستفيدة من دعم تلك القو ة التي وظّفتها لتوسيع وتوطيد نفوذها داخل المغرب للقضاء على بقايا الوطاسيين[2] والوقوف ضد الغزو الإيبيري، فعمل السلاطين السعديين على تقريب بعض الزعماء الصوفيين المتعاونين معهم ومنحهم الإمتيازات والنفوذ على حساب زعماء آخرين وهو ما كان سببا في قيام حركات تمرد وثورات على مدار الحكم السعدي.

هذا ما سنحاول الحديث عليه من خلال هذه الورقة البحثية الموسومة ب:" **علاقة القوة الدينية بالسلطة في المغرب الأقصى بين التقارب والصراع(الدولة السعدية أنموذجا)** "، والتي نطرح من خلالها إشكالية رئيسية هي : ماعلاقة القوة الدينية بالدولة السعدية، وما عوامل تغير وتذبذب هذه العلاقة على مدار فترة حكمها؟. والتي سنعمل من خلالها على تسليط الضوء أكثر على الأدوار التي قامت بها القوة الدينية داخل المغرب وبشكل أخص في تأسيس الدولة السعدية لتتحوّل فيما بعد إلى عامل إضعاف لها، وسنعتمد في ذلك على المنهج التاريخي الذي يعتمد على التحليل والنقد لدراسة الأحداث والوقائع المرتبطة بموضوع البحث.

أولا: القوة الدينية قبيل مجيء السعديين:

تزايد نفوذ الطرق الصوفية في المغرب الأقصى حتى أصبح له تأثير على المجتمع والسلطة، وشكّلت تلك الطرق الصوفية قو ة دينية أثرت على الحكم منذ عهد المرابطين [3] لا سيما وأنها اصطبغت بصبغة سياسية حيث أخذت تنتقد الكثير من المظاهر السلبية في المجتمع، وتمكّنت من خلال تصوّرها للمجتمع الفاضل أن تصنع أنموذجا مناقضا لوضع المجتمع المرابطي، ورأى الكثير من المغاربة في أفكار الصوفية ملاذا روحيا له م ومنطلقا شرعيا لمناهضة الظلم [4] (الياسري فاهم نعمة،عجه حسنين عبد الكاظم، ص 162)، وقد اقترن النفوذ الديني للمتصوّفة في العهد المريني [5]بالنفوذ السياسي والعسكري، وكانت تلك الطرق الصوفية أهم قنوات التعبئة العسكرية لا سيما الشاذلية والقادرية، وقد إستفاد المرينيون من القو ة الدينية دون خسارة نفوذهم، لكن إنشغالهم في محاربة البرتغاليين، وفي خلافاتهم الداخلية منحت الفرصة للقو ة الدينية لأن تقود حركة الجهاد ضد المستعمرين، وفي ظل تلك الإضطرابات ظهرت الأسرة الوطاسية التي تمكّنت من القضاء على المرينيين، إلا أن حدود سيطرتهم لم تكن كاملة لأنهم لم يتمكّنوا من إخضاع كل أجزاء البلاد، وفي هذه المرحلة زاد نفوذ القو ة الدينية بشكل كبير في الجوانب الروحية والسياسية والعسكرية، وهو ما أجبر الوطاسيين على إحترامهم ومحاولة إستقطابهم للتأثير على الشعب وتوطيد الأمن الداخلي وكذا لمواجهة المستعمر(الياسري فاهم نعمة،عجه حسنين عبد الكاظم، ص164)[6].

1- إنحلال سلطة المرينيين والوطاسيين: تعاقب على العرش المغربي منذ مقتل أبي عنان المريني **(749-759هـ/1348-1358م)** أربعة عشر ملكا في ظرف يسير لم يكن من بينهم من يطمئن على نفسه أو يستطيع

إعادة الطمأنينة للبلاد ، فقد قام آخرهم عبد الحق بن أبي سعيد المريني (825-869هـ/1421- 1465م) بمذبحة الوطاسيين الرهيبة، وإسناد الوزارة إلى اليهوديين هارون وشاويل إنتقاما من أهل فاس الذين تأكد من إنحرافهم عنه فساءت سيرة اليهوديين وكثر تعسفهما ومصادرتهما لأموال التجار المسلمين (محمد حجي،1976،ص40)[7]، وانتهى الأمر بثورة شعبية قضت على حياة اليهوديين وعبد الحق المريني سنة 869هـ/ 1465م، قادها نقيب الشرفاء في فاس محمد الحفيد الشريف الإدريسي الجوطي (ابن القاضي،1971،ص128)[8] الذي اعتلى الحكم في نفس السنة 869هـ/1465م بدعم من الطريقة الجازولية، وتولى الجوطي حكم فاس بين مؤيد ومعارض فانشغل بتهدئة الأوضاع ومحاولة مواجهة الحصار الذي فرض على فاس من طرف بني وطاس لمدة سنتين، وانتهى الأمر إلى نفي الجوطي إلى تونس.

أخذ محمد الشيخ الوطاسي (1472- 1505م)[9] الناجي من المذبحة بالدعوة لنفسه في أصيلا ثم في فاس فكانت له ولأبنائه من بعده سلطة محدودة في الشمال تقل كلما ابتعدت عن المنطقة لتصبح مجرد سلطة إسمية في حوز مراكش، وتركت بلاد ما وراء الأطلس غير خاضعة للوطاسيين، هذا الوضع سهّل من مهمة البرتغاليين في غزو الشواطئ المغربية، فتمكّنوا في فترة لا تتجاوز النصف قرن إلا قليلا (862-921هـ/1458-1515م) من السيطرة على الموانئ المغربية المتوسطية والأطلسية إلى مصب نهر ماسة بأقصى بلاد سوس باستثناء مدينة سلا(محمد حجي،1976 ، ص40)[10].

عجز الوطاسيون عن القضاء على البرتغاليين والإسبان بسبب إنشغالهم في خلافاتهم الداخليةّ، فتركوا البلاد في فوضى حتى أصبح المغرب الأقصى مقسّما إلى وحدات سياسية صغيرة تحت زعامات دينية أو قبلية أو مجالس محلية مستقلة عن الوطاسيين كآل رحو في دبدو، وبني راشد في شفشاون في الشمال والجنوب الشرقي،كما ظهرت إمارات في وسط وجنوب المغرب كآل فرحون في آسفي، وبن حدو وأخيه أبي فارس في الجبل الأخضر، وغيرها من الإمارات كما كثرت الثورات والإضطرابات، وهو ما جعل الشعب يتّجه إلى السعديين الذين سيظهرون في بلاد سوس، وبذلك سيظهر من جديد دور القوى الدينية بالإستفادة من الأوضاع في سحب البساط من تحت أقدام الوطاسيين لصالح السعديين (كمال السيد، 1996 ص ص110-111)[11].

بدأت الدعوة إلى ضرورة إيجاد إمام عادل قادر على إنشاء سلطة موحدة قصد الجهاد ضد الإستعمار الأجنبي بعد التوقيع على معاهدة سينترا (Sintra) بين إسبانيا والبرتغال سنة 1509 والتي نصّت على تقاسم السواحل المغربية بينهما أساس إطلاق يد الإسبان في المنطقة الممتدة بين بادس ومليلية مقابل الإعتراف بالنفوذ البرتغالي على المنطقة الممتدة من مليلية شمالا إلى رأس بجدور جنوبا باستثناء حصن سانتا كروز (Santa Cruz)الذي بقي تحت السيطرة الإسبانية[12] (كريم، 2006، الصفحات 10-12).

ثانيا: قيام الدولة السعدية ودور القوة الدينية :

حاولت السلطات المرينية ومن بعدها الوطاسية الإستفادة من دور القوى الدينية لإكتساب أساس جديد للشرعية(ملين محمد نبيل،ص 17)[13]، إلا أن الظروف الصعبة التي سبق ذكرها هي التي مهّدت الطريق أمام السعديين حيث تبلور نشاط شيوخ الطرق الصوفية في الجنوب في حركة سياسية عملت على تغيير الوضع القائم عن طريق التأسيس لحكم جديد يستطيع إيقاف الغزو الإيبيري على سواحل المغرب، وبرزت هنا أربع زوايا، زاوية مدغرة في تافيلالت، زاوية تاكمدارت في درعة حيث تربى أحمد ومحمد إبنا الفقيه محمد بن عبد الرحمن الذي سيعرف فيما بعد بالقائم بأمر الله، فقد نشر شيخ هاتين الزاويتين عبد الله بن عمر المدغري

(توفي حوالي 928هـ/1522م) في المناطق الصحراوية فضائل الأسرة السعدية الشريفة، وقام في سبيل ذلك برحلة طويلة دخل أثنائها بلاد سوس ونشر دعوته بين شيوخها الذين ربطته بهم أواصر الطريقة الشاذلية، كما تزعّمت هذه الحركة في بلاد جازولة زاوية تيدسي بضاحية تارودانت، و زاوية أمّا فيما يلي الصحراء الكبرى أين كان الشيخ بركات بن محمد التيدسي (توفي بعد 917هـ/1511م) يشرف على أعمال المجاهدين ضد البرتغاليين في منطقتي فونتي وماسة، أما الشيخ الأقاوي (توفي 924هـ/1518م) كان يحرّض المجاهدين في أقصى الجنوب ضد الإستعمار، وبتوحيد جهود الشيخين تأكد لهما عدم جدوى المقاومة غير المنظّمة لإقناع سكان بلاد سوس بضرورة التأسيس لحكم جديد قادر على إصلاح الوضع الفاسد رغم معارضة بعض زعماء القبائل.

عرضت الإمارة على محمد بن مبارك الأقاوي وبركات التيدسي نظرا لما كانا يتمتعان به من قوة ونفوذ إلى جانب الإحترام، ورغبة القبائل في إسناد السلطة إلى أحد السوسيين (محمد السيد محمد أبو رحاب،2008،ص64)[14]، إلا أنهما رفضا وطلبا مبايعة شريف درعة محمد بن عبد الرحمن لأنه الأنسب لهذا المنصب نظرا لشجاعته، وكفايته في قيادة المجاهدين (محمد السيد محمد أبو رحاب، 2008، ص 64)[15]، ولنسبه القرشي الذي لا يعارض فيه أحد من سكان المغرب قاطبة (محمد حجي، 1976،ص42)[16]. ومحمد بن عبد الرحمن هو من حفدة أحمد بن محمد بن القاسم الذي استقر في القرن 13م بتكمادارت قادما من المشرق بطلب من سكان درعة الذين طلبوه للإنتفاع ببركته في وقت قل فيه محصول النخيل، وقد انتقل إلى تيدسي أحد حفدته وهو الشريف علي بن مخلوف الذي نزل بين القبائل الهوّارية التي بنت له زاوية قصد العلم والتعليم(محمد الصغير الإفراني،1998، ص ص11-13)[17].

خلال سنة 915هـ/1509م استدعى الشيخ محمد بن مبارك إلى زاوية أمّا الفقيه محمد بن عبد الرحمن ليطلعه على آخر التطوّرات السياسية في سوس، و اتفق الرجلان على المبادئ والوسائل ليحضرا في السنة الموالية تجمعا في زاوية تيدسي بايع أثناءه شيوخ الزوايا ورؤساء المصامدة وعامة السوسيين محمد بن عبد الرحمن القائم بأمر الله أمير للمؤمنين(محمد حجي،1976،ص43)[18].

إن الطبيعة الفوق قبلية للشرف هي ما دفع الصلحاء الجازوليين وشيوخ العشائر في سوس إلى بدء المفاوضات مع الشريف محمد بن عبد الرحمن، وبعد محادثات وتجاذبات مطوّلة لم تذكر المصادر عنها الكثير، بايعت قبائل سوس الشريف بإيعاز من أرباب الزوايا في 19 أفريل1510، وقد إتخذ لقب القائم بأمر الله(ملين محمد نبيل، ص 22)[19]. وبعد مبايعة محمد بن عبد الرحمن تم الإتفاق على الجهاد ضد النصارى بقيادة الشريف الذي كوّن جيشا من القبائل السوسية جهّزه بواسطة عائدات الزكاة التي قبل أعيان السوسيين إعطائها له.

يعتبر يوم بيعة محمد بن عبد الرحمن يوم ميلاد دولة جديدة هي الدولة السعدية التي أخذت على عاتقها مهمة ضرب السلطة الوطاسية وتوحيد البلاد تحت سلطة موحدة قصد تحرير المناطق المحتلة من طرف الكفار (عبد اللطيف أكنوش، ص 98)[20]، وفعلا بدأ القائم بأمر الله من تيدسي حملة منظّمة ضد البرتغاليين في حصن فونتي إبتداءا من سنة 1511م، فتراجع البرتغاليون عن القواعد الأمامية التي كانوا يحتلونها خارج فونتي، فاستبشر الناس بذلك خيرا واعتبروه من بشائر الدولة الناشئة، وبلغت أخبار البيعة والإنتصار بلاد حاحا والشياظمة بحوز مراكش المتضرّرين كثيرا من ظلم الحامية البرتغالية بآسفي، فاتجه

رؤساء تلك القبائل إلى تيدسي لمبايعة القائم بأمر الله وطلب مساعدته لضرب النصارى وبنوا له حصنا في قرية أفوغال سنة 1516(عبد اللطيف أكنوش،ص 99)[21].

إن الهدف من مبايعة القائم بأمر الله هو إيجاد قيادة رشيدة لمواجهة الخطر الصليبي ، وهو ما أحسن السعديون القيام به حيث تمكّنوا من تحرير العديد من الموانئ من أيدي البرتغاليين، ولم تظهر مطامعهم السياسية لحكم المغرب الأقصى إلا في مرحلة لاحقة بعد أن تمكنوا من استقطاب تأييد المغاربة الذين أدركوا أن السعديين هم رجال المرحلة، لا سيما بعد أن أدرك زعماء الصوفية أن رايتهم التي تبحث عمن يقود حركة الجهاد الإسلامي ضد الأخطار الأوربية تحتاج إلى أيادي أسرة جديدة تمتلك أطر وثوابت تؤهلها للعب ذلك الدور كي تكتمل مقومات تصدي المقاومة للمستعمرين (الياسري فاهم نعمة،عجه حسنين عبد الكاظم،ص166)[22].

ترك القائم بأمر الله ابنه محمد أمغار (الذي سيعرف فيما بعد بمحمد المهدي الشيخ) نائبا له في تيدسي، واتجه إلى الجنوب وقطع جبال الأطلس مع إبنه الأكبر أحمد الأعرج وعدد من المقاتلين السوسيين ليحل في أفوغال(مقر ضريح الشيخ محمد سليمان الجازولي)، ومن ثم أخذ محمد القائم ينظّم شؤون بلاد الحوز ويهيء قواته للإغارة على آسفي إلى أن توفي سنة 923ه/1517م، فخلفه ابنه أحمد الأعرج(محمد حجي،1976، ص43)[23].

في ظل هذا التقدم الملحوظ للسعديين وفشل البرتغاليين في حصار مراكش وهزيمتهم النكراء في المعمورة (المهدية حاليا) سنة 1515م، عملوا على مراجعة إستراتيجيتهم فسعوا إلى بسط سيطرتهم على الداخل بفضل تواطؤ زعماء محليين من ذوي المطامح ومن أشهرهم يحي بن محمد تعفوفت (ملين محمد نبيل، ص25)[24]، من بلاد عبدة ودكالة والذي أغروه بالمال والجاه واستدعوه إلى لشبونة لأخذ رأيه في وضع خطط التوسّع والتوغّل داخل البلاد المغربية، والذي قام أحمد الأعرج بقتله وسحق الجيش البرتغالي الذي تراجعت فلوله إلى آسفي متحصّنة بالأسوار سنة 927ه/1521م(محمد حجي، 1976، ص43)[25]، واستطاع أحمد الأعرج تحقيق عدة إنتصارات على حساب البرتغاليين، ومن التوسّع داخل البلاد بالوصول إلى مراكش سنة 1525م، فتخلى البرتغاليون سنة 1531م عن آسفي وأزمور مما وطّد موقف أحمد الأعرج تجاه الوطّاسيين الذين ما لبثوا أن انهاروا نهائيا أمام ضربات جيوش أخيه وخليفته محمد الشيخ سنة 1554م، الذي كان يرى أن أخاه يتهاون في جهاده ضد النصارى، وبعد سنتين من المعارك المتقطّعة ألقى محمد الشيخ القبض على أخيه وزج به في السجن(ملين محمد نبيل، ص 33)[26]، ليباشر بنفسه قطع المراحل الباقية في تمهيد البلاد، استغرقت هذه المرحلة عشر سنوات تمكّن خلالها بمساعدة ابنيه القائدين الحران وعبد القادر ومساندة القو ة الدينية من القضاء على نفوذ الوطّاسيين في بلاد تامسنا والغرب ثم في مكناس وفاس، واسترجع السلطة من يد شرفاء بني راشد في شفشاون وتطوان وسائر بلاد الهبط وجبال غمارة، وتوحيد المغرب نهائيا في 24 شوال 961ه/22سبتمبر 1554م، بعد القضاء على آخر الوطّاسيين أبي حسون على أبواب فاس وتمزيق أنصاره(محمد حجي،1976، ص45)[27]، فتربّع على عرش فاس، فانتهت بذلك الدولة الوطّاسية. وتمكّنت الدولة السعدية من الظهور كدولة بفضل دعم القوة الدينية التي ساهمت في وضع ركائز هذه الدولة.

قامت الدولة السعدية على أساسين مهمّين، أساس ديني في أنهم أشراف وبالتالي فهم أحق بحكم المغرب من بني وطّاس الذين فشلوا من الناحية السياسية في إدارة البلاد، ولجأ السعديون إلى إقناع الناس بشرف نسبهم ، حتى يؤكدوا أن لقيام دولتهم أساسا دينيا وأنهم ليسوا مجرد مغتصبين للسلطة، أما الأساس

السياسي الذي قامت عليه الدولة فإنها جاءت إستجابة لفشل الوطّاسيين في الرد على الإعتداءات الأجنبية وعجزها عن تنظيم المقاومة ضد الإحتلالين البرتغالي والإسباني، لذلك عرض السعديون أنفسهم كقوة قادرة على مواجهة هذا التحدّي (حركات إبراهيم،ج2، ص ص 272-274)[28]، وعملت على خلق سياسة دينية قائمة على دعم الحركات الصوفية الموالية لها من أجل صناعة رأي عام مساند لها، فالفكرة الدينية كانت دائما هي المحرك الرئيسي الذي له صيت لدى الشعب المغربي من خلال تبجيلهم للشرفاء أو أصحاب النسب النبوي ما هو إلا تأكيد للروح الدينية القوية، ولذلك عندما تقترن هذه الروح الدينية مع النسب الشريف ومع البداوة والأصالة الجنوبية تنجح تلك العائلات في بناء دول قوية، الأمر الذي تكرّر في بلاد المغرب بصفة عامة والمغرب الأقصى بشكل خاص لعدة مرات عبر التاريخ منذ بداية القرن الثاني للهجرة (مصطفى خواص،2013،ص40)[29].

ثالثا: سياسة السلاطين المغاربة تجاه القوة الدينية :

كانت القوة الدينية تبرز على الساحة السياسية في المغرب الأقصى عندما تضعف السلطة المركزية لأنها كانت الأداة الوحيدة القادرة على تنظيم الشعب بغرض الحفاظ على الأمن الداخلي والوقوف ضد الهجمات الصليبية، وقد تزايد نفوذها لدرجة الرغبة في ممارسة السلطة العليا في البلاد، لذلك نرى أن السعديين ومنذ بداية عهدهم عملوا على تطويق الزوايا والحد من خطرها على المنافسة السياسية بالتصدي إلى سلطتها الإقتصادية(عبد اللطيف أكنوش، ص 107) [30]، وذلك من خلال حرمانها من مواردها التي كانت تستحصلها كالأوقاف الإسلامية والحقوق الشرعية (محمود علي عامر،محمد خير فارس،ص 46)[31]، حيث نجد أن محمد الشيخ (951- 965هـ/1544- 1557م) أخضع الزوايا للمراقبة والتفتيش فأخلى بعضها ونفى أصحابها إلى أماكن معيّنة، ووصل إلى حد أنه صادر كل الودائع التي كانت في حوزة الزوايا منذ العهد المريني (أبو العباس احمد الناصري، ، ص 1997،ص31)[32]، كما ألغى جميع الإمتيازات التي كان أرباب الزوايا يتمتّعون بها كالإعفاء من الضرائب، لكن هذه المواقف الصارمة التي اتخذها محمد الشيخ تجاه القوى الدينية لم تحقّق الهدف لأنه بقضائه على إمتيازاتها جعلها تتحيّن الفرص للقيام بالثورة ضده، حيث استغلوا هزيمته أما م حملة صالح رايس على فاس سنة 961هـ/1554م فقامت ثورة في مختلف أرجاء المغرب الأقصى بتحريض من تلك القو ة الدينية الفاقدة لإمتيازاتها، وهو ما جعل محمد الشيخ يسخّر جهوده لقمعها بدل الإستفادة من دعمها له كقوة رئيسية للحفاظ على حكمه، فقد عمل على إضطهادها وتهميش دورها بشتى الصور، وقد دلّت إجراءات الإعدام التي اتخذها ضد عدد من رجالاتها على مبلغ قسوته وعدم إكتراثه لموقف الشعب وحرصه على نفوذه ومركزه، فقد أرسل سنة 958هـ/1552م جيشا إلى الأطلس وآخر إلى سوس لمحاربة ثورة تزعّمها بعض الصوفية (إبراهيم حركات، ج 2،ص 251)[33]، فتم القضاء على ثورة سوس بعد قتل زعيمها ، كما دسّ للشيخ عبد الواحد الونشريسي جماعة من الفتّاك الذين اغتالوه سنة 955هـ/1549م، أثناء حصار فاس الأول لأنه رفض التخلي عن بيعة الوطّاسيين (إبراهيم حركات، ج2، ص251)[34]، كما حكم بالإعدام على الفقيه عبد الوهاب بن الزقاق الذي حاكمه شخصيا، كما أمر بإعدام الشيخ حرزوز المكناسي خطيب أحد جوامعها ، وكلا الفقيهين كانا ضد قيام الدولة السعدية ولا يريان في القضاء على الوطّاسيين مبررا شرعيا، فتم إعدامهما سنة 961هـ/1555م(إبراهيم حركات، ج2، ص251) [35].

تبنى عبد الله الغالب(965-981هـ/1557- 1574م) سياسة تراوحت بين الترغيب والترهيب حيث عمل على تبني سياسة مختلفة عن والده من خلال تقريب بعض كبار المرابطين إليه للحفاظ على ملكه لما لهم من دور في تهدئة الوضع خاصة في الجنوب المغربي الذي كان ثائرا ضد حكم والده ، فتقرّب من أتباع الإمام الجازولي كأحمد بن موسى السملالي، والمعروف عن السعديين تحالفهم مع الطريقة الجازولية (عبد اللطيف عوام،2012، ص376)[36]، حيث نجد أن أحمد الأعرج ما إن دخل إلى مراكش عمل على نقل جثمان الإمام الجازولي إلى مراكش، وقد لقي هذا العمل الترحيب بين صفوف الأولياء الجازوليين، وكان أحمد الأعرج على دراية بمدى نفوذ الإمام الجازولي والأولياء الجازوليين في نفوس المغاربة، وقد قام الأمام الجازولي بدور مهم إلى جانب أحمد الأعرج من أجل إعادة توحيد البلاد (عبد اللطيف عوام، 2012،ص376)[37]، إلا أن ذلك لم يمنع تعرّض الكثير من أرباب الزوايا حتى الجازولية منها إلى بطش الغالب حيث استولى على بعض زواياهم كزاوية تمصلوحت، وكان ضد سياسة عدد من أرباب الطرق الصوفية الذين اكتفوا باتخاذ موقف سلبي في انتظار الفرصة المناسبة (عبد اللطيف عوام، 2012، ص255)[38].

اتبع عبد الله الغالب سياسة ثنائية حيث طبّق مبدأ التعايش السلمي مع الزوايا التي كانت تخضع له خضوعا أعمى وتتحاشى إنتقاد القائمين على أمور المسلمين رغم تهوّرهم، كزاوية سيدي أحمد أو موسى بتازروالت، وزاوية الشيخ أبي عمر القسطلي، في حين أن السلطان كان يشّد بيد من حديد على الزوايا التي أظهرت معارضة للسلطة العليا كزاوية عبد الله بن حسين بتامصلوحت، وأتباع الزاوية الشراقية وصاحبها أحمد بن يوسف الجزائري الأصل(عبد اللطيف أكنوش،ص108)[39].

في عهد أحمد المنصور الذهبي (986- 1012هـ /1578 – 1603م) تواصلت نفس السياسة تجاه القو ة الدينية حيث عمل على تقريب البعض منهم وكسبهم إلى جانبه للحفاظ على الإستقرار الداخلي حيث قرّب إليه الشيخ أبو عبد الله البصري المكناسي والذي كان ممّن يرغب المنصور في لقائهم، والذي كان يغدق عليه (عبد العزيز الفشتالي،1964، ص224)[40]، ورغم ركون القو ة الدينية في فترة أحمد المنصور الذهبي إلا أن ذلك لم يمنع من قيام الثورات كثورة الحاج قرقوش في شمال المغرب بمقاطعة الهبط الذي دعى لنفسه ولبس شارة الملك وتسمى بكتابه بأمير المؤمنين وادعى أنه من الأشراف، وقاد ثورة في صفر 996هـ/1588م، وعمل المنصور على القضاء على هذه الثورة بسرعة لقربها من المراكز الإسبانية، فتمكّن من إلقاء القبض عليه في رجب 997هـ/جوان 1588م، وأعدم في فاس.

كما أصدر محمد المتوكّل (981- 986هـ/1573-1578 م) سنة 1577 حكما بإعدام الفقيه أبي عبد الله محمد الأندلسي الذي أعلن دفاعه عن المذهب الظاهري الذي يتبناه ابن حزم (عبد اللطيف أكنوش،ص105)[41]، كما أن السلطان محمد المأمون سيتخلى للإسبان عن مدينة العرائش ويأمر بإعدام الشيخ محمد علي الأغصاوي الذي رفض أن يفتي بجواز هذا العمل، وقد غادر فقهاء فاس مدينتهم حتى لا يلقوا نفس مصير الأغصاوي.

بعد وفاة المنصور ستعود القوة الدينية للظهور من جديد بعد أن أحكم المنصور قبضته عليها من خلال إستمالة البعض بالمال وإستعمال القوة مع البعض الآخر، فنشطت نشاطا قويا مستفيدة من صراع أبناء المنصور الذي قاد البلاد إلى حرب أهلية تمخض عنها تقسيمها إلى مملكتين شمالية عاصمتها فاس وجنوبية مركزها مراكش فحصلت إزدواجية في السلطة اقترنت بإساءة السلاطين لمعاملة الرعايا (الياسري فاهم نعمة، عجه عبد الكاظم، ص 168)[42]، فتهيأت الفرصة للطرق الصوفية لممارسة دورها السابق متذرّعة بعدة ذرائع

كالضغط على السلاطين حتى يعدلوا بين الرعية، إلى جانب قيادة حركات الجهاد ضد الإسبان والبرتغاليين الذين تكالبوا على البلاد واحتلوا العرائش سنة 1603، والمعمورة سنة 1610 ، بعد أن سهّلت مملكة فاس إحتلال المعمورة، وفشلت مملكة مراكش في مواجهتهم، حيث كلّف زيدان شيخ الطريقة العياشية المجاهد العياشي على أن ينوب عنه في مقاومة الإسبان والبرتغال، وبذلك سيعود المغرب الأقصى إلى نفس الأوضاع التي سبقت قيام الدولة السعدية من الإنقسام والصراع والتنافس.

رابعا: دور القوة الدينية في إضعاف الدولة السعدية :

لقد ساندت القوة الدينية السعديين في تأسيس دولتهم ووضع دعائم حكمهم والحفاظ عليه، إلا أن سوء سيرة وسياسة البطش وعدم التحكم في الأوضاع من طرف السعديين كانت السبب الرئيسي وراء تمرّد هذه القوى خاصة وأنهم كان لهم نفوذ قوي على العامة فبدأت تظهر العديد من الحركات التي قويت بعد وفاة المنصور الذهبي في ظل إضطراب الوضع الداخلي والإحتلال الأجنبي، والتي ستزيد في إضعاف قوة السعديين حتى أصبحوا أحد أسباب سقوطها بعدما كانوا عاملا رئيسيا في قيامها.

إن تسليم العرائش من قبل المأمون إلى الإسبان سنة 1018هـ/1609م وإحتلال المعمورة 1023هـ/1614م كان له أثر كبير على القوة الدينية التي بدأت تتحوّل من قوة داعمة للدولة السعدية إلى قوة مناهضة لها، إذ ساهم رجالاتها في تقليص النفوذ السعدي، وهذا التحوّل لا يرتبط فقط بالتدخل الأجنبي ولكن يعود أيضا إلى التطورات التي عرفها المغرب الأقصى في عهد أبناء المنصور الذهبي (محمد الصغير الإفراني،1998، ص308)[43]. فتمكّنت هذه القوة الدينية من تأسيس إمارات مستقلة في مختلف أرجاء المغرب الأقصى.

من بين أهم الحركات التي ساهمت في إضعاف الدولة السعدية والتعجيل بنهايتها:

1 - إمارة أبو محلي (1611- 1612م): هو أبو العباس أحمد بن عبد الله المعروف بأبي محلي (محمد الصغير الإفراني،1998، ص295)[44]، درس الفقه بفاس وتعلّم التصوّف بنواحيها، استقر بمسقط رأسه في سجلماسة سنة 1600م فانقطع للتعلّم والتأليف في الفقه والأدب والسياسة (عبد اللطيف اكنوش، ص102)[45]، إلى غاية سنة 1611م أين سيقوم بثورته باسم الخروج على أئمة الجور والظلم وباسم المهدوية (عبد اللطيف اكنوش، ص102)[46]. يعرف عن أبن محلي شدة تحامله على المبتدعين والمنحرفين عن الدين فنعتهم بأقبح النعوت ،ويدعوهم بالجهلة ولا يرى إلا شدخ رؤوسهم بالمهراس والمدارس والمنجنيق وتقطيع أمعائهم بالسم الزعاف (محمد حجي، 1988، ص143)[47]. حاول إستغلال موجة الغضب والإستياء التي أثارها تسليم العرائش للإسبان فدعا إلى الجهاد ضد الإسبان والإطاحة بحكم السعديين، وادعى أنه المهدي المنتظر الذي سيخلص البلاد من جور أبناء المنصور، فتحرّك على رأس أتباعه فزحف إلى سجلماسة وسيطر عليها وهزم عامل زيدان فيها، فلقي الترحيب والتأييد من داخل المغرب وخارجه، وسيطر على إقليم درعة بعد هزيمة حملة كبيرة وجّهها زيدان ضده، ثم تقدّم إلى مراكش وتمكّن من هزيمة زيدان في أطرافها سنة 1061هـ/1612م، ثم دخل المدينة وطرد زيدان، وأعلن نفسه خليفة وسلطانا واستقر بالبلاط السعدي المراكشي، وظن أن الأمر قد استتب له فشرع في ضرب السكة باسمه (محمد القبلي، 2011، ص393)[48]، ودبّت في رأسه نشوة الملك ونسي ما بنى عليه أمره من الحسبة والنسك (أبو العباس أحمد الناصري، 1997، ص101)[49]، غير أن حركته لم تدم سوى ثلاث سنوات

حيث التجأ زيدان إلى آسفي واستنجد بالفقيه الصوفي أبي زكرياء يحي الحاحي في زاويته بجبال الأطلس الكبير، وأوكل له أمر القضاء على أبي محلي،فتمكّن من هزيمته واجتز رأسه التي علّقت على سور بمراكش مع رؤوس جماعة من أصحابه (محمد حجي، 1988، ص 144)[50]،سنة 1023هـ/1614م،حيث ظلّت معروضة نحو إثني عشر سنة.

2- إمارة أبو زكريا يحي: هو يحي بن عبد الله بن سعيد بن عبد المنعم الحاحي، أسّس والده زاوية تافيلالت بزداغة الواقعة شمالي تارودانت على واد أسيف نتامنت (واد العسل) اشتغل فيها بتدريس العلم وتربية المريدين، وكان عالما مصلحا أرسل إبنه يحي إلى فاس ليدرس بها وطالت إقامة يحي بفاس عدة سنوات، كان يسكن خلالها هو وابن أبي محلي بيتا واحدا في إحدى المدارس، وحصل على نصيب وافر من العلوم الدينية والأدبية، ورجع إلى قريته عالما كبيرا وأديبا شاعرا ليتولى أمر الزاوية بعد وفاة أبيه عبد الله سنة 1012هـ/1644م، وقد سلك أبو زكرياء في بداية الأمر سبيل سلفه، فوقع عليه إقبال كبير من قبائل جبل درن (الأطلس الكبير) وبلاد سوس، وامتلأت رحاب زاويته بالمريدين وطلبة العلم الذين انكبوا على دروسه واشتغلوا بانتساخ الكتب القيّمة، وألّف أبو زكرياء كتابا في العقائد، وشرح العقيدتين، وعقيدة المهدي بن تومرت (محمد حجي،1988، ص 147)[51].

وكما سبق ذكره استجاب أبو زكرياء لطلب السلطان زيدان وقضى على خصمه أبي محلي، وظل أبو زكرياء مقيما بمراكش في حين كان السلطان زيدان في آسفي ينتظر عودة السوسيين إلى مساقط رؤوسهم ليرجع إلى حكمه، فطال به الإنتظار، فكتب إلى أبو زكرياء : « أما بعد ، فإن كنت إنما جئت لنصرتي وكف يد ذلك الثائر عني فقد بلغت المراد، وشفيت الفؤاد، وإن كنت إنما رمت أن تجر النار لقرصك، وتجعل الملك قنصك فأقر الله عينك به» (أبو العباس أحمد الناصري، 1997، ص43)[52]. فاضطر أبو زكرياء إلى الرجوع إلى الزاوية واستئناف حياته العادية، لكن استولت فكرة الرياسة على نفس أبو زكرياء بعد رجوعه من مراكش وفترت همته في تدريس العلم، وأخذ يراسل السلطان زيدان ويمن عليه بمناصرته، ويتجنى كثيرا دون أن يفصح عما يجول بخاطره (أبو العباس أحمد الناصري، 1997، ص46)[53]، إلى أن أعلن الثورة في سوس ضد السلطان زيدان موهما أتباعه أن عمله هذا يهدف إلى حماية الدين، وجمع كلمة المسلمين وتقدّم بهم إلى تارودانت، فملكها من يد أبي حسون السملالي (سيأتي الحديث عنه) بعد قتال شديد واتخذها عاصمة لإمارته، لكن لم يتمكن أبو زكرياء بعد ذلك من توسيع دائرة نفوذه شمالا ولا جنوبا، واكتفى بالسيطرة على هذه المنطقة الجبلية الضيقة الممتدة من تارودانت إلى زداغة إلى أن وافته المنية سنة 1035هـ/1626م فنقل إلى زاوية تافيلالت بالأطلس الكبير(محمد حجي،1988، ص 148)[54].

3- إمارة أبو حسون السملالي: يكنى أيضا بأبا الحسن وبودميعة، وصاحب الساحل، من أحفاد الشيخ أحمد بن موسى السملالي صاحب الزاوية المعروفة بتازورالت بسوس (محمد حجي،1988، ص 148)[55]، لم يكن لأبي حسون باع في العلم رغم أن أهل بلدته كانوا ينادونه بالفقيه (محمد حجي، 1988، ص 149)[56]. لم يكن أول الطامعين في الحكم من أسرته حيث سبقه إلى ذلك أبناء عمه إبراهيم والحسن لكن لم ينجحا، استحوذ أبي حسون على بلاد سوس سنة 1022هـ/ 1614م وأسّس بالقرب من زاوية جده أحمد بن موسى مدينة حصينة سمّاها إيليغ، وإتخذها عاصمة لإمارته وسيطر على كل بلاد سوس بعد موت أبي زكرياء الحاحي، ثم امتد نفوذه إلى درعة وسجلماسة حوالي 1040هـ/1630 – 1631م فصار أمير الجنوب المغربي كلّه، وكوّن في إيليغ جهاز حكومي تام يضم إلى جانب أبي حسون الذي تلقّب بالسلطان و وزيرا يسمى محمد، وقاضي الجماعة علي بن محمد التيلكاتي، والقائد حمو بن بلا، وغيرهم من ذوي المسؤولية والنفوذ(محمد حجي،1988، ص 149)[57].

وقد اعترفت بعض الدول الأجنبية بحكمه وغدت تفاوضه وتعقد معه المعاهدات التجارية مما مكّنه من جني الأرباح الطائلة من الصفقات التجارية، ومن الحصول على العدة والعتاد، فأهّله ذلك للدفاع عن المجالات الواسعة التي كان يسيطر عليها(محمد القبلي، 2011، ص394)[58].

توسّع أبو حسون على منطقة درعة و سجلماسة أدخله في مواجهة الزاوية الدلائية التي كانت تطمح هي الأخرى إلى السيطرة على ما وراء الأطلس المتوسط في إتجاه الجنوب، وقد احتوت الرسالة التي وجّهها إليه الشيخ محمد بن أبي بكر الدلائي شيخ الطريقة على كثير من التعنيف في حقّه عندما دخلت جيوشه منطقة تافيلالت وأسرت المولى الشريف بن علي جد الأسرة العلوية، كما آخذته على تعسفه الضريبي وسوء معاملته للسكان(محمد القبلي، 2011، ص394)[59].

على الرغم مما توحي إليه الرسالة إلا أن وقعها كان إيجابيا على أبي حسون الذي دخل في علاقات ودية مع الزاوية الدلائية حيث تبادلوا الزيارات، كما كان أبو حسون يستنسخ الكتب القيّمة من الدلاء. غير أن تلك العلاقات بين الدلائيين والسملاليين سرعان ما تغيّرت بعد وفاة الشيخ محمد بن أبي بكر الدلائي، وقيام ابنه الراغب في السيطرة على البلاد، واشتدّت لهجة المراسلات المتبادلة بين إيليغ والدلاء، فكان أبو حسون يسعى لإقناع محمد الحاج بضرورة التخلي عن أطماعه في الرياسة، وحمله على الإعتراف بسلطة الملك السعدي ليخلو له الجو، ثم انقطع حبل الإتصال نهائيا بين الطرفين بسبب إنصراف محمد الحاج إلى نشر سلطته في تادلا وبلاد الغرب، وإنشغال أبي حسون بالفتن الخطيرة التي قامت ضده في الصحراء، تلك الفتن التي انتهت بإقصائه نهائيا عن سجلماسة ودرعة حوالي 1050هـ/1640 - 1641م على يد محمد بن الشريف (محمد حجي،1988، ص 153)[60].

تقلّصت حدود إمارة أبي حسون وانحصر في بلاد سوس، توفي أبي حسون سنة 1070هـ/1660م فخلفه إبنه محمد في إمارة إيليغ وظل بها إلى أن دكّتها مدافع السلطان الرشيد بن الشريف العلوي وهدمتها على رؤوس أهلها سنة 1081هـ/1670م(محمد حجي،1988، ص 154)[61].

4- حركة العياشي: هو محمد بن أحمد المالكي الزياني العياشي السلاوي أصله من قبيلة بني مالك بن زغبة من العرب الهلالية المستوطنة ببلاد الغرب، كان من أخص تلاميذ الشيخ عبد الله بن حسون الذي أشار عليه بالجهاد في سبيل الله. بدأ يظهر على الساحة السياسية أوائل القرن 11هـ/17م كمجاهد متطوّع في بلاد دكالة يرابط فيها لقتال البرتغاليين في الجديدة، وبلغ حتى تضييقه على النصارى المحتّلين في انتصاره على جيوشهم في العديد من المعارك في مراكش، فكافئه السعديون بعمالة مدينة آزمور (محمد حجي، 1988، ص 154)[62]، وتضايق البرتغاليون كثيرا من حركته فعمدوا إلى شراء ضمائر حاشية السلطان زيدان بهدايا ثمينة، ونجحت المؤامرة حيث جهّز زيدان سرية قوية وجّهها إلى آزمور لقتل العياشي لكن قائد السرية محمد السنوسي أبلغ العياشي وأفسح له المجال للخروج إلى مسقط رأسه، فرجع العياشي إلى سلا سنة 1023هـ/1614-1615م فوجد الإسبان قد احتلوا المعمورة قبل عام من قدومه إليها وعاثوا فسادا، ورغم طلب السلاويون المساعدة من السلطان زيدان إلا أنه لم يرد عليهم لأنه كان قد حصل على هدايا ثمينة من الإسبان فاعتمد السلاويون على أنفسهم وقدّموا العياشي وبايعوه على الجهاد، وإقامة الحدود، فنصّب العياشي أميرا للمجاهدين في سلا وسائر بلاد الغرب، وامتد نفوذه حتى شمل تطوان وأقاليم الشمال، وهكذا ضمن العياشي لنفسه وجودا قانونيا كحاكم سياسي وإداري يمتد نفوذه من تامسنا إلى تازا (محمد الصغير الإفراني،1998، ص440)[63].

اتسع نطاق نفوذ العياشي حتى أصبح يتنقل في حركاته الجهادية بين المعمورة والعرائش ، طنجة وسبتة، ومليلية، والجديدة، كما جابه صعوبات داخلية بسبب تمرّدات بعض القبائل التي تعمل على السلب والنهب وإثارة الإضطرابات، وكثيرا ما تعرّضت فاس إلى قبائل شراكة الحيانية بالإضافة إلى صراعه مع الأندلسيين المقيمين في الرباط وسلا بسبب رفضهم مقاتلة النصارى، ورفضهم التعاون معه خاصة وأنهم لقيوا الدعم من الإسبان(إبراهيم حركات، ج 2، ص290)[64]، وفي المقابل توطّدت علاقته مع محمد بن أبي بكر الدلائي، والتي ظهرت من خلال الرسائل التي تبيّن الثقة والصراحة والتقدير والإحترام، وكانت الرسائل تحفّز العياشي على السير قدما في جهاده، ولم يقتصر الدعم على المراسلات وتحفيز القبائل على نصرته ومؤازرته بل كانوا يقدّمون لهم الإعانات المادية والجنود المقاتلة عند الحاجة(محمد حجي،1988، ص 160)[65].

لن يستمر الود بين العياشي و الدلائيين لأن وجود العياشي سيكون حجرا عثرا أمام توسّع الدلائيين، خاصة عندما اتجه محمد الحاج الدلائي نحو الغرب فأراد تحقيق أطماعه بالتخلص من العياشي صاحب النفوذ، ولتحقيق ذلك تحالف مع الأندلسيين أعداء العياشي بعد أن فروا إليه طالبين الحماية من هذا الأخير ، فطلب محمد الحاج شفاعة العياشي الذي رفض فرد محمد الحاج بالزحف في أوائل سنة 1050هـ/1640م، وسيطر على مكناس، ثم اتجه إلى فاس فاعترض طريقه العياشي فوقعت المعركة بين الطرفين التي انتصر فيها العياشي، فتحالف محمد بن الحاج مع القبائل المعادية للعياشي، واستغل خروج هذا الأخير لقتال الإسبان في طنجة بأن هاجمه ووقعت معركة ثانية بين العياشي والدلائيين أواخر 1050هـ/1641م، وقتل فرس العياشي تحته في المعركة فلجأ إلى قبيلة الخلط التي ستغتاله في عين القصب واحتزوا رأسه وبعثوه إلى خصومه في محرم 1051هـ/1641م، وبموته خلا الجو للدلائيين.

مثّلت حركة العياشي ظاهرة معبّرة عن التحوّلات التي عرفتها بعض الزوايا في المغرب الأقصى خلال القرن 17م، فكانت ردة فعل ضد الإحتلال الأجنبي لسواحل المغرب وإقتناع قائدها بعدم قدرة السلطة الحاكمة على مواجهته والتساهل في التعامل معه، لكنها سرعان ما استسلمت لقوة الزاوية الدلائية.

5- إمارة الدلائيون (مرابطي الدلاء): ينسب الدلائيون إلى دلاء، وهي قبيلة من صنهاجة استقر جدهم أبو بكر بن محمد المجاط الملقّب بالوجاري والزموري بتادلا حيث بنى الزاوية الدلائية، فقد ولد سنة 943هـ/1536م (إبراهيم حركات، ج 2، ص293)[66]، ولمع نجمه في عهد المنصور الذهبي، وكان ذا فضل وعلم فأصبحت زاويته ملجأ لرجال الدين وبدأت الوفود تتوارد عليه حتى إشتهر أمره، ومع أن المنصور لم يرق له ظهور الدلائيين إلا أنه أبدى عطفه على حركتهم كرجال دين(إبراهيم حركات، ج2، ص293)[67].

تأسست الزاوية الدلائية حوالي عام 974هـ/1566م على يد أبو بكر بن محمد بن سعيد الدلائي (محمد حجي،1998، ص 31)[68]، ولم تلبث أن أصبحت ملاذا لكل الثائرين خلال فترة الأزمة السياسية، وتمكّن خلفه محمد بن أبو بكر(1021-1046هـ/1612-1637م) من توسيع نفوذ الزاوية بالأطلس المتوسط وملوية إلى أن أصبحت أهم مركز ديني بهذه الجهات مما أهلها بمهمة التحكيم في النزاعات بين القبائل، خاصة منها التي تتعلّق بالمجالات الرعوية (محمد القبلي، 2011، ص395) [69]، وقد نبغ محمد بن أبي بكر في العلوم الدينية خاصة التفسير والحديث والفقه، واتصل به عدد كبير من العلماء الكبار كأبي العباس المقري، وابن عاش. وعندما تولى أمرها محمد الحاج (1046هـ/1637م) تحوّلت الزاوية إلى قوة سياسية حقيقية منافسة للكيانات السياسية الأخرى (محمد القبلي، 2011، ص395)[70]. ففي عهده امتدت سلطة الدلائيين إلى مكناس وفاس، وكل مناطق تادلا، وقد توافد عليه الأندلسيون من سلا فارين من اتهام العياشي الذي استصدر فتاوي

لتكفيرهم، وبعد تمسكه بتعاليمه، أشهر الدلائيون عليه الحرب كما سبق ذكره في الحديث عن حركة العياشي، وهكذا أصبح محمد الحاج أمير الشمال بدون منازع على إثر إقصائه للعياشي، وهو ما شجّعه على التطلّع إلى أخذ فاس ومكناس وبسط نفوذه على بقية البلاد، وإن كانوا قد نجحوا في التوسّع في الشمال فإنهم أخفقوا في الجنوب على الرغم من الغارة التي شنّوها على تافيلالت سنة 1056هـ/1646م حيث أجبرهم كبير الشرفاء العلويين على التراجع إلى حدود جبل العياشي الذي أصبح بمثابة الحد الفاصل بين الدلائيين والعلويين(محمد القبلي، 2011، ص396)[71]. لكن عاد الصراع بين الطرفين بعد قيام ثورة بفاس على عامل الدلائيين أبي بكر التاملي، فاستعان سكان فاس بالعلويين، فهزموا الدلائيين وعيّنوا عاملا جديدا هو ابن محمد الحاج أحمد سنة 1061هـ/1650م الذي ضبط شؤونها هو وأخوه الذي ولي بعده، وفي هذه الفترة برزت ثورة خضر غيلان أحد رفقاء العياشي بالهبط الذي توسّع على القصر الكبير سنة 1063هـ/1652م، وخضعت له قبائل الغرب بينما قتل محمد الشريف العلوي سنة 1075هـ/1664م، فواصل أخوه مولاي الرشيد التوسع إلى فاس التي دخلها سنة 1076هـ/1665م ودخل في حروب متتالية مع الدلائيين إلى أن تمكّن من إحتلال زاويتهم سنة 1079هـ/1668م، وبقي محمد الحاج مدة من الزمن بفاس إلى أن ذهب هو وأسرته إلى تلمسان بطلب من السلطان الرشيد، وكانت وفاته بتلمسان سنة 1082هـ/1671م(محمد حجي، 1988، ص 259)[72].

هكذا قضت أسرة الدلائيين قرابة ثلثي القرن 11هـ في حكم جزء كبير من المغرب، وكانت جهودها تمثل آخر محاولة لإعادة صنهاجة إلى الحكم بعد محاولات بني غانية وبني وطاس (إبراهيم حركات، ج2، ص295)[73]. تمكّن الدلائيون بفضل توسعاتهم ونفوذهم على عدد من موانئ المغرب خصوصا ميناء أبي الرقراق من عقد عدة معاهدات مع دول أجنبية خاصة هولندا التي اتسعت تجارتها الخارجية في هذه الفترة (إبراهيم حركات، ج2، ص295)[74]. والفائدة التي حقّقها هؤلاء الدلائيون من علاقاتهم مع أوربا لم تقتصر على الأرباح الطائلة التي استخلصوها من السفن العابرة لمجالاتهم البحرية بل أنه شمل أيضا ما كانوا يحصلون عليه من ذخيرة وأسلحة حربية متطوّرة مكّنتهم من مواجهة خصومهم (محمد القبلي، 2011، ص397)[75].

6- أشراف سجلماسة العلويين: بادر أهل سجلماسة خلال القرن 11هـ/17م إلى مناصرة أسرة الأشراف العلويين الذين اقترن قدومهم إلى المغرب بهجرة جدهم الحسن الداخل الذي استقر بسجلماسة (محمد الغير الإفراني، 1998، ص ص 486- 493)[76] بطلب من جماعة من الحجّاج القادمين من الحجاز الذين كانوا يعتقدون ببركة الشرفاء في إستدرار الخير حيث اتصلوا في ينبع (واحة وميناء صغير على البحر الأحمر) (إبراهيم حركات، 1994، ص18)[77] بوالد الحسن الذي وافق على إرسال ابنه للإستقرار في سجلماسة، وعرف بالعلم والتقوى، وتوفي ودفن في وسط سجلماسة (706- 707هـ/1306-1307م) (إبراهيم حركات، 1994، ص18)[78].

من أحفاده المولى علي الشريف الذي أقام بالأندلس مدة طويلة وشارك في الجهاد، وبعد عودته إلى سجلماسة طلبوا منه العودة إلى الجهاد وكانوا قد بايعوه عندما كان مقيما عندهم لأن يكون ملكا عليهم ،والتزموا النصرة والطاعة ،إلا أنه كان زاهدا في الدنيا (محمد بن محمد المشرفي، 2005، ص215)[79]. من أولاده المولى علي(الثاني) الذي من أحفاده المباشرين علي الشريف (الثالث) دفين مراكش وجد العلويين وكان مولده 997هـ/1587م(إبراهيم حركات، 1994، ص18)[80]، والذي ترك مجموعة من الأولاد منهم الشريف الذي بايعه أهل تافيلالت سنة 1041هـ/1631م زعيما محليا وكان عمره آنذاك إثنان وخمسون سنة، وقد تعاون مع أبو حسون السملالي إلا أنه سيتخلى عن الأمر سنة 1045هـ/1635- 1636م فاختار أهل تافيلالت ابنه محمد

بعده، وعندما تعرّضت تافيلالت لهجوم الدلائيين بسط محمد سيطرته على خصومه (1045-1075هـ/1635-1664م)، وفي المقابل تمكّن أبو حسون من احتجاز المولى الشريف وعمل ابنه على إفتدائه بمال عظيم، لكن أبي حسون احتفظ به رغم تهديدات الدلائيين وبقيت ظروف نجاته غامضة(إبراهيم حركات، 1994، ص19.

سيتمكّن ابنه محمد من التوسّع بفضل دعائم القبائل فطرد جميع أنصار أبي حسون 1050هـ/1640م، فأصبحت له منطقة نفوذ خاصة ولو أنها لم تكن مكتملة التنظيم (محمد القبلي، 2011، ص401)[81]. وقد استنجد به أهل فاس بعد إنتفاضتهم ضد الحكم الدلائي فدخل فاس، وألقى القبض على العامل الدلائي وتلقى بيعة السكان، لكن الدلائيين تصدّوا له وهزموه فاضطر إلى تغيير استراتيجيته بتوطيد حكمه في الصحراء الشرقية وتمكّن من السيطرة على العديد من المراكز في الطريق الصحراوي شرقا إلى أنكاد (إبراهيم حركات، 1994، ص19)[82].

في أواخر سنة 1073هـ وأوائل 1074هـ حدثت مجاعة خطيرة بفاس أحدثت إضطرابات داخلية جعلت أهلها يستنجدون بالدلائيين، وفي هذه الفترة كان هناك صراع بين المولى محمد وأخيه الرشيد بسبب إستيلاء هذا الأخير على ثروة اليهودي بن مشعل، وعندما طالبه بها أخوه محمد رفض وأعلن الثورة وساعدته تلك الأموال على تجهيز جيش لمواجهة أخيه ووقع بين الطرفين صدامات كانت نهايتها مقتل المولى محمد سنة 1075هـ/1664م، وقام أهل سجلماسة بمبايعة الرشيد.كما ثار ضدّه ابن أخيه محمد إلا أنه تمكّن من القضاء عليه ثم اتجه إلى تازا التي فتحها بعد محاربة طويلة (محمد بن محمد المشرفي، 2005، ص267)[83]، ثم اتجه بعدها إلى فاس وحاصرها سنة 1077هـ/ 1666 م وأجبر أهلها على مبايعته بعد قتل الدريدي وبويع بها (محمد بن محمد المشرفي،2005، ص267)[84].

عمل المولى الرشيد على توحيد البلاد والقضاء على خصومه فطرد خضر غيلان من القصر الكبير وآل نقسيس والأعيان الموالين لهم بتطوان، وبعد أن استتب له الأمر في الشمال اتجهت أنظاره إلى الأطلس المتوسط فهزم الدلائيين سنة 1079هـ/1668م، فقضى بذلك على أخطر منافسيه (محمد القبلي، 2011، ص402)[85]، كما تمكّن من دخول مراكش ثم ضم السوس والأطلس الصغير وقضى على نفوذ أسرة أبي حسون السملالية فاستتب له الأمر على كل المغرب (محمد القبلي، 2011، ص403)[86]. ثم سيواصل أخوه إسماعيل المسيرة لتوطيد حكم الدولة العلوية.

خاتمة:

استطاع السعديون تأسيس دولة استمرت لأكثر من مئة سنة مستفيدين من الظروف والأوضاع التي عرفها المغرب الأقصى في تلك الفترة المرتبطة بالتوتر والإضطراب ورفض المغاربة للحكم القائم فكوّنوا نظاما قائما بذاته اعتمد على الطرق الصوفية وعلى رأسهم الجازوليين للقضاء على المرينيين.

تزايد نفوذ القوى الدينية بفعل الإمتيازات والعطايا التي منحت لشيوخها لتوسيع نفوذ الدولة السعدية في مراحلها الأولى والحفاظ على إستمراريتها وترسيخ حكمها فيما بعد.

شكّلت القوى الدينية قوى ذات وزن سياسي وإجتماعي وديني فعمل السعديون على إحتوائهم لإدراكهم مدى أهمية حضورهم ودورهم المؤثر في أوساط المجتمع المغربي.

ضعف بعض السلاطين السعديين وسوء أخلاقهم وموقفهم من الإعتداءات الإيبيرية كانت الأسباب الرئيسية لتزعم تلك القوى لحركات التمرد والإستقلال.

الهدف الأسمى لتلك القوى الدينية هو الدعوة إلى الجهاد ضد النصارى وجمع شمل المغاربة، رغم أن بعض الطرق الصوفية وقياداتها كانت تسعى إلى الوصول إلى الحكم كما فعل العلويون.

الإحالات والمراجع:

[1] **الدولة السعدية**: امتد حكمها بين 1554- 1658م، السعديون هم من الأشراف قدموا إلى المغرب الأقصى مع أوائل القرن 8هـ في عهد بني مرين ويقول عبد الكريم كريّم أن سبب تسميتهم بالسعديين هي أن المغاربة سعدوا بهم وأصبحوا ينعمون بالأمن والطمأنينة في ظل حكمهم، ينظر: كريّم، عبد الكريم، المغرب في عهد الدولة السعدية، شركة الطبع والنشر، (الدار البيضاء: شركة الطبع والنشر، 1977)، ص40.

[2] - **الوطاسيين:** يعود نسبهم إلى لمتونة أحد فروع قبيلة صنهاجة، سيطروا على الحكم بعد بعد ضعف المرينيين وخلعوا الشريف أبي عبد الله محمد بن علي الإدريسي الذي نصّبه أهل فاس حاكما، وكان محمد الشيخ الوطاسي أول من تولى الحكم من بني وطّاس، وفي عهدهم بدأ السعديون في الظهور ودخلوا معهم في صراع انتهى بإزاحتهم عن الحكم، ينظر: ابن أبي زرع، علي بن عبد الله الفاسي، الذخيرة السنية في تاريخ الدولة المرينية، الرباط، 1972، ص22.

[3] - **المرابطين:** امتد حكمهم بين 1056- 1147م، بدأوا كحركة دينية بمبادرة من يحي بن إبراهيم الجدالي شيخ قبيلة جدالة الصنهاجية وتزعم الحركة عبد الله بن ياسين الجازولي وسمي أنصاره بالمرابطين، ينظر:دبوز، محمد علي، تاريخ المغرب الكبير، ج3، دار الفكر، (بيروت: دار الفكر،ب ت)، ص ص4-6.

[4] - الياسري،فاهم نعمة، عجه،حسنين عبد الكاظم، " الإسهامات السياسية لمتصوفة المغرب الأقصى في العصر الحديث"مجلة التربية جامعة واسط، العدد12، ص162.

[5] - **العهد المريني**:امتد بين 1269- 1465م، ينتمي المرينيون لقبيلة زناتة، بدأ ظهورهم في جنوب المغرب الأقصى بقيادة أبي محمد عبد الحق محيو الذي هزم الموحدين سنة1216م، ولم تتشكّل الدولة فعليا إلا مع أبي يوسف يعقوب بن عبد الحق المعروف بالسلطان المنصور، ينظر: ابن الأثير، عز الدين أبو الحسن علي، الكامل في التاريخ، ج12، دار الكتب العلمية، (بيروت: دار الكتب العلمية،2003)، ص 569.

[6] - الياسري،فاهم نعمة، المرجع السابق، ص164.

[7] - حجي، محمد، الحركة الفكرية بالمغرب في عهد السعديين، ج1، منشورات دار المغرب للتأليف والترجمة والنشر(المغرب:منشورات دار المغرب للتأليف والترجمة والنشر،1976، ص40.

[8] - **محمد بن علي الجوطي الشريف الحسني:** سلطان المغرب ، عزل عن الحكم سنة875ه/ وهو الذي ولى بعد السلطان عبد الحق عندما ثار عليه العامة من أهل فاس، انظر: ابن القاضي،أحمد بن محمد المكناسي، درة الحجال في أسماء الرجال / ذيل وفيات الأعيان،تحقيق: محمد الأحمدي أبو النور، ج2، ط1، دار التراث العربي، (القاهرة: دار التراث العربي،1971)، ص128.

[9] - **محمد الشيخ الوطاسي:** (1471- 1504م)، سلطان وطاسي عرفت فترة حكمه اضطراب الأوضاع بسبب توسع البرتغاليين على السواحل الأطلسية وبداية بروز قوة السعديين في الجنوب،ينظر: الزركشي، أبو عبد الله محمد بن إبراهيم اللؤلؤي، تاريخ الدولتين الموحدية والحفصية: تحقيق محمد ماضور، المكتبة العتيقة، (تونس: المكتبة العتيقة،1966)، ص156.

[10] - حجي، محمد، المرجع السابق، ص40.

[11] - كمال السيد، أبو مصطفى، جوانب من الحياة الإجتماعية والإقتصادية والدينية والعلمية في المغرب الإسلامي، (القاهرة، 1996)، ص ص110-111.

[12] كريّم، عبد الكريم، المرجع السابق، ص ص10 .12

[13] - ملين، محمد نبيل، السلطان الشريف: الجذور الدينية والسياسية للدولة المخزنية في المغرب، ترجمة :الزموري عبد الحق،بن عبد الله عادل، منشورات المعهد الجامعي للبحث العلمي، (الدارالبيضاء: منشورات المعهد الجامعي للبحث العلمي،جامعة محمد الخامس)، ص17.

[14] - أبو رحاب، محمد السيد محمد، العمائر الدينية والجنائزية بالمغرب في عصر الأشراف السعديين،د ار القاهرة (القاهرة: دار القاهرة، 2008)، ص64.

[15] - أبو رحاب، محمد السيد محمد، المرجع نفسه، ص64.

[16] - حجي، محمد، المرجع السابق، ص42.

[17] - الإفراني، محمد الصغير، نزهة الحادي بأخبار ملوك القرن الحادي، تقديم وتحقيق: عبد اللطيف الشادلي، ط1، مطبعة النجاح الجديدة، (الدار البيضاء: مطبعة النجاح الجديدة، 1998)، ص ص 11- 13.

[18] - حجي،محمد، المرجع السابق، ص43.

[19] - ملين، محمد نبيل، السلطان الشريف، المرجع السابق، ص22.

[20] - أكنوش، عبد اللطيف،، تاريخ المؤسسات والوقائع الإجتماعية بالمغرب،إفريقيا الشرق، (الدار البيضاء: إفريقيا الشرق) ، ص 98.

[21] - أكنوش، عبد اللطيف، المرجع نفسه، ص99.

[22] - الياسري،فاهم نعمة، عجه،حسنين عبد الكاظم، المرجع السابق، ص166.

[23] - حجي،محمد، المرجع السابق، ص43.

[24] - ملين، محمد نبيل، السلطان الشريف، المرجع السابق، ص25.

[25] - حجي،محمد، المرجع السابق، ص43.

[26] - كان محمد الشيخ البالغ من العمر53 سنة ينتظر الوصول إلى الحكم منذ ثلاثين سنة، وبناءا على وصية أبيه كان من المفروض أن

يتولى الأمر بعد أخيه، لكن يبدو أن هذا الأخير أراد تغيير الأمر إذ كان يفكر في جعل إبنه زيدان وليا للعهد، وقد اغتر محمد الشيخ بانتصاراته على البرتغاليين ما جعله يشعر بما يكفي من القوة للقطع على أخيه المتّهم بممارسة سياسة المهادنة تجاه البرتغاليين والوطاسيين، انظر: ملين، محمد نبيل، السلطان الشريف، المرجع السابق، هامش (67)، ص33.

[27] - حجي،محمد، المرجع السابق، ص45.

[28] - حركات، إبراهيم، المغرب عبر التاريخ،ج2، دار الرشاد الحديثة،(الدار البيضاء: دار الرشاد الحديثة، دون تاريخ، ص ص272-274.

[29] - خواص، مصطفى، « التحولات السياسية في المغرب الأقصى،من الدولة السعدية إلى اليوم"، مجلة التراث، جامعة الجلفة، العدد10، ديسمبر 2013، ص40.

[30] - أكنوش، عبد اللطيف، المرجع السابق، ص107.

[31] - محمود، علي عامر، خير فارس، محمد، تاريخ المغرب العربي الحديث (المغرب الاقصى- ليبية)مديرية الكتب جامعة دمشق، (دمشق: مديرية الكتب الجامعية جامعة دمشق)، ص46.

[32] - الناصري،أبو العباس أحمد بن خالد، الإستقصاء لأخبار دول المغرب الأقصى، تحقيق: جعفر الناصري،محمد الناصري،ج5،دار الكتاب،(الدار البيضاء: دار الكتاب، 1997)، ص31.

[33] - حركات، إبراهيم، المغرب عبر التاريخ،ج2-، المرجع السابق، ص251.

[34] - نفسه، ص 251.

[35] - نفسه، ص 251.

[36] - عوام، عبد اللطيف، " قراءة في كتاب الطريقة الجزولية من التصوّف إلى السياسة"، مجلة المناهل،عدد91 – 92، أفريل 2012، (الرباط: منشورات وزارة الثقافة المغربية)، ص 376.

[37] - عوام، عبد اللطيف، المرجع نفسه، 376.

[38] - نفسه، ص255.

[39] - أكنوش، عبد اللطيف، المرجع السابق، ص108.

[40] - الفشتالي، عبد العزيز، مناهل الصفا في اخبار الملوك الشرفاء، تحقيق: عبد الله كنون، ج2، منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية، جامعة محمد الخامس، (الرباط: منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية، جامعة محمد الخامس، المطبعة المهدية،1964)، ص224.

[41] - أكنوش، عبد اللطيف، المرجع السابق، ص105.

[42] - الياسري،فاهم نعمة، عجه،حسنين عبد الكاظم، المرجع السابق، ص168.

[43] - الإفراني، محمد الصغير، المصدر السابق، ص308.

[44] - الإفراني، محمد الصغير، المصدر السابق، ص295.

[45] - أكنوش، عبد اللطيف، المرجع السابق، ص102.

[46] -نفسه،ص102.

[47] حجي، محمد، الزاوية الدلائية ودورها الديني والعلمي والسياسي،ط2، مطبعة النجاح الجديدة،(الدار البيضاء: مطبعة النجاح الجديدة،1988، ص143.

[48] - القبلي، محمد، تاريخ المغرب: تحيين وتركيب، منشورات المعهد الملكي للبحث في تاريخ المغرب،(الرباط: منشورات المعهد الملكي للبحث في تاريخ المغرب، 2011)، ص393.

[49] - الناصري، أبو العباس أحمد بن خالد، المصدر السابق، ص101.

[50] - حجي، محمد، الزاوية الدلائية، المرجع السابق، ص144.

[51] - حجي، محمد، الزاوية الدلائية، المرجع نفسه، ص147.

[52] - الناصري، المصدر السابق،ص43.

[53] - المصدر نفسه،ص46.

[54] - حجي، محمد، الزاوية الدلائية، المرجع نفسه، ص148.

[55] - المرجع نفسه، ص148.

[56] - المرجع نفسه، ص149.

[57] - المرجع نفسه،ص149.

[58] - القبلي، محمد، المرجع السابق، ص394.

[59] - المرجع نفسه، 394.

[60] - حجي، محمد، الزاوية الدلائية، المرجع السابق، ص153.

[61] - المرجع نفسه، ص154.

[62] - المرجع نفسه،ص154.

[63] - الإفراني، المصدر السابق، ص440.

[64] - حركات، إبراهيم، المغرب عبر التاريخ،ج2-، المرجع السابق، ص290.

[65] - حجي، محمد، الزاوية الدلائية، المرجع السابق، ص160.

[66] - حركات، إبراهيم، المغرب عبر التاريخ،ج2-، المرجع السابق، ص293.

[67] - المرجع نفسه، ص293.

[68] - حجي، محمد، الزاوية الدلائية، المرجع السابق، ص31.

[69] - القبلي، محمد، المرجع السابق، ص395.

[70] - المرجع نفسه،ص395.

[71] - المرجع نفسه،ص396.

[72] - حجي، محمد، الزاوية الدلائية، المرجع السابق، ص259.

[73] - حركات، إبراهيم، المغرب عبر التاريخ،ج2-، المرجع السابق، ص295.

[74] - المرجع نفسه،ص295.

[75] - القبلي، محمد، المرجع السابق، ص397.

[76] - الإفراني، المصدر السابق، ص486- 493.

[77] - حركات، إبراهيم، المغرب عبر التاريخ، ج3،ط2،دار الرشاد الحديثة، (الدار البيضاء: دار الرشاد الحديثة،1994)، ص18.
[78]- حركات، إبراهيم، المغرب عبر التاريخ، ج3، المرجع نفسه،ص18.
[79]- المشرفي، محمد بن محمد بن مصطفى، الحلل البهية في ملوك الدولة العلوية وعد بعض مفاخرها غير المتناهية،ج1، دراسة وتحقيق: إدريس بوهليلة، منشورات وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، دار أبي الرقراق للطباعة والنشو (الرباط: منشورات وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، دار أبي الرقراق للطباعة والنشر،2005)، ص215.
[80] - حركات، إبراهيم، المغرب عبر التاريخ، ج3، المرجع السابق، ص18.
[81] - القبلي، محمد، المرجع السابق، ص401.
[82]- حركات، إبراهيم، المغرب عبر التاريخ، ج3، المرجع السابق،ص22.
[83]- المشرفي، محمد بن محمد بن مصطفى، الحلل البهية في ملوك الدولة العلوية وعد بعض مفاخرها غير المتناهية،ج1،المصدر السابق، ص267.
[84]- المصدر نفسه، ص267.
[85] - القبلي، محمد، المرجع السابق، ص402.
[86]- المرجع نفسه، ص403.